

التربية وتنمية الموارد البشرية في البلاد العربية

الاقتصادية او في الزراعة او في الاعمال المهنية الاخرى ، او في ادوارهم الاجتماعية كباء وامهات ومواطنين وغير ذلك .
ولكن هذه المحاولات لا تزال ضيقة في شمولها وبدائية في خيالها وقد يكون ذلك للأسباب التالية :

اولا : ان نظرنا الى جماهيرنا لا تزال تتأرجح بين تردد غير المتكثرت لمصر هؤلاء وبين ضغوط التخلف وما يترتب على هذا التخلف من تخوفات داخلية واستغلال خارجي .

ثانيا : ان معرفتنا لجماهيرنا معرفة سطحية والدراسات التي يمكن ان نسفنا في هذا المجال قليلة جدا وغير كافية . فلا نعرف الكثير عما تتوارثه جماهيرنا من عقلية تنعكس في معتقداتهم وممارساتهم وفي عاداتهم وتقاليدهم ، وبالتالي لا نعرف كيف تخاطب هذه العقلية ونتفاعل معها .

ثالثا : وعندما تتوفر لدينا هذه المعرفة او بعضها يعوزنا الخيال في وضع البرامج القادرة على شد اهتمامات هذه الجماهير والتأثير فيها .

لم تعد الامكانيات المالية هي العقبة في كثير من الدول العربية ، وحتى ارادة المسؤولين في بعضها لم تعد هي العقبة . لكن كيفية الوصول الى جماهيرنا بالتأثير الفعال عن طريق العاملين او المرشدين او عن طريق الوسائل الاعلامية هي المشكلة الكبرى ، فتدريب العاملين ما زال غير مرتبط ارتباطا وثيقا بواقعا الاقتصادي والاجتماعي او بعقلية جماهيرنا ، ونتاج الوسائل التعليمية لا يزال اما بدائيا او حتى غير موجود . ومع حرصنا على استغلال اخر ما توصلت اليه التكنولوجيا التلفزيونية فلم تنتج الافلام الملائمة لرعاية اطفالنا ولمعالجة مشاكلنا الصحية والزراعية وخاصة المستمدة من واقع مجتمعاتنا المتخلفة ليرى فيها المشاهد او المشاهدة مرارة لنفسه ولمارساته .

اما بالنسبة للشباب الذين نالوا قسطا من التعليم المدرسي ، أي الفئة الثانية من الكبار ، فارى ان نجعل اليهم فئة الشباب الذين فانهم التعليم المدرسي والذين تسربوا منه في مرحلة مبكرة . هؤلاء جميعا يعدون بمئات الالاف (او حتى بالملايين اذا اخذنا المجتمع العربي ككل) . لا تستطيع مؤسساتنا التدريبية الموجودة الا استيعاب عدد قليل جدا من هؤلاء ويبقى اكثر هؤلاء قوة معطلة مع ازدياد حاجتنا الى الكفاءات والمهارات المتوسطة . وفي رأبي ان درجة التنمية ستوقف الى سنوات عديدة على السرعة في تدريب هذه الفئة من صفار الكبار

وانتقل الى التعليم العالي اي الى الفئة الثالثة اعلاه ، ولي هنا بعض الملاحظات وسأتناولها بإيجاز شديد . واعتقد اننا جميعا احسننا بها .

تفني المواضيع المدرجة في برنامج هذا المؤتمر عن الدخول في بعض الجوانب المتعلقة بهذا الموضوع بالذات ، وبذلك يفسح المجال في الوقت المحدد لهذا الموضوع التركيز على حال التربية العربية وعلى بعض جوانب الواقع التي تعمل فيه ، ثم على بعض الافكار لتطويرها لتصبح قادرة على تادية دورها في تنمية مواردنا البشرية .

وسأعرض كذلك عن الجوانب الكمية لحال التعليم واقتصر على واقع نوعية التربية السائدة في بلادنا لان هذا هو موضوع الساعة من ناحية ولان نوعية العقلية ونوعية الصفات الشخصية المطلوبة في عمليات التنمية هي التي تعطي للاعداد المطلوبة من مختلف الكفاءات والمهارات في مجالات التنمية الفروق الحاسمة في ابداعها ونتاجيتها . واهتمامات التربية في اقتنائها بتنمية الموارد البشرية تشمل جميع الناس : جميع العاملين منهم بكل فئاتهم ومستوياتهم ، وكذلك جميع الذين يمكن ان يعملوا لجمال هؤلاء جميعا اكثر كفاءة واصدق استعدادا للقيام بواجباتهم وادوارهم في عمليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية وبذلك تشمل التربية في اهتماماتها جميع الكبار وجميع الصغار .

اما بالنسبة للكبار فالتربية العربية تدرهم من حيث حاجاتهم التربوية والتدريبية الى الفئات التالية :

الفئة الاولى : وتشمل جماهير الشعب الذين لم يحصلوا على الحد الأدنى من المعارف والمهارات اللازمة لهم للقيام بادوارهم الاقتصادية والاجتماعية في عمليات التنمية .

الفئة الثانية : وتشمل الذين حصلوا قدرا من التعليم (أي اتم اكثرهم المراحل العليا من التعليم المدرسي) لكن هذا التعليم لا يصلح لاستيعابهم الا في مجالات محدودة في عمليات التنمية فيحتاجون الى تدريب متخصص يهيئهم للاستيعاب .

والفئة الثالثة : وهم الذين تخرجوا من المعاهد العليا او من الجامعات .

اما بالنسبة للفئة الاولى من الكبار فتوهمت التربية في بداية اهتمامها بهم ان معو اميتهم سيخلق الصلة اللازمة بينهم وبين ما يحتاجون من معارف وبهذه الصلة سيتطورون تطورا ذاتيا يجعلهم اكثر كفاءة للقيام بادوارهم في عمليات التنمية لم استبدلت هذه المحاولات بما يسمى بالتعليم الوظيفي لهؤلاء الكبار . أي شد الناس الى حب التعلم لان مضمون هذه التعلم يستمد من حاجاتهم الاقتصادية والاجتماعية وتحاول هذه التربية استغلال مختلف الوسائل والحيل التي توصلت اليها التكنولوجيا التربوية كما تحاول تدريب العاملين للعمل مع هؤلاء ، كل ذلك لاحداث التنفر المطلوب في ممارستهم وتقاليدهم المتوارثة بغية بلورة كفاءاتهم ان كان ذلك في ادوارهم

الملاحظة الاولى : تتعلق بعدم ارتباط تعليم الجامعيين بواقع مجتمعا في ابعاده المختلفة . يمر الشاب في مراحل التعليم المدرسي والجامعي ويكاد يخرج منها اميا بالنسبة لواقعنا الاقتصادي والاجتماعي والسياسي .

الملاحظة الثانية : تتعلق بالتنوع الموجودين بين المثقفين : نوع ينتمي الى علماء الدين ، لم يدخل في تعليمهم الا القدر اليسير من المعارف والعلوم الحديثة ونوع ينتمي الى المثقفين الذين لم يدخل في تعليمهم الا القدر اليسير من ثقافتنا وحضارتنا وتاريخنا . فكيف تطور فلسفة مشتركة لتنمية مجتمعاتنا ونطلق طاقات الانسان فينا ولا تزال هاتان الفئتان من علمائنا ومفكرينا غرباء عن بعضهم البعض تختلف الصورة التي تريدها كل فئة للانسان والمجتمع عن تصور الفئة الاخرى؟ فكيف يمكن لهذه الثقافات المختلفة استخلاص ما نشأ وتطور في حضارتنا من قيم عليا من ناحية ، واستيعاب ما نوصلت اليه المعارف والعلوم البشرية واستيعاب تجارب الامم الاخرى من ناحية اخرى ؟ اي كيف تلقي حضارتنا نفسها وحضارات الامم الاخرى في شخص الفكر والعالم الواحد فينا . وما هو دور الجامعات وما هو دور الدراسات والابحاث في ذلك ؟ ثم كيف يمكن ان تتغفل نتائج ذلك في جميع المراحل التعليمية ؟

والملاحظة الثالثة : تظهر في العمل والتطبيق ، أي عند الحاجة الى القدرة على ادراك الواقع وادراك ما فيه من ابعاد وامكانيات ، والقدرة على تصور كيفية تحريكه نحو اهداف الامة وغاياتها . وهذه القدرة تستلزم وجود صفات عقلية وفكرية وخلقية كان يجب ان تتواصل في النفس في مراحل التعليم الدنيا والعليا . لكن المطلع على سلوك اكثر العاملين في المواقع القيادية والاستراتيجية في عمليات التنمية من قادة سياسيين واداريين وعلماء وفنيين يرى ان هؤلاء جميعا بحاجة الى الخيال والابداع اللازم لتكييف الافكار السائدة في التنمية وتطبيقها .

والان انتقل الى التربية المدرسية : اي الى تربية المنبع الاول للموارد البشرية . وتبرز هنا قضيتان خطرتان بالنسبة لتنمية الموارد البشرية .

القضية الاولى : هي ان حظ اعداد هائلة من اطفالنا - ما زالوا اكثرية في بعض البلاد العربية - من التعليم المنظم لا يزيد على ست او سبع سنوات وسيدخل هؤلاء بعد بضع سنوات من تربيتهم من المدرسة السوق الاقتصادية والسوق الاجتماعية : أي العمل للذكور والعمل والزواج للبنات . أي أن هؤلاء يدخلون فئة الكبار المنتجين الفعاليين في المجتمع بعد سبع سنوات من التعليم المنظم فقط .

هذه حقيقة . ولكن ما هي اهمية هذه الحقيقة للتربية وتنمية هذا المورد البشري ؟ او بعبارة اخرى : هل احست التربية وهل احس المخططون لتنمية الموارد البشرية بحاجات هذه الفئة لدخولها في فئة العاملين في تنمية المجتمع . الجواب هنالك بعض المحاولات لتعليم الراغبين منهم - وهم فئة قليلة بالنسبة الى اعدادهم - تعليما يختلف عن التعليم المدرسي . لكن ما هي المعارف وما هي المهارات التي يستطيعون اكتسابها والتي يجب ان تتوفر لهم لرفع كفاءتهم في مجالات العمل ولتحسين ادوارهم كآباء وامهات ومواطنين ؟ وما هي المناهج الصالحة لتحقيق ذلك : فهذا سؤال لم يطرح بالجدية الكافية بعد .

والقضية الثانية : تتعلق بالاولى وتنتج من ترابط المراحل التعليمية الاكاديمية ، كل مرحلة منها مصممة لتهيء الطفل للمرحلة التي تليها في سلم التعليم . وكل هذه المراحل مصممة لتصب في التعليم العالي . فاذا لم يتيسر للطفل الترفي من مرحلة الى مرحلة ، اضطر للخروج من التعليم المنظم باحساس من الشلل يحطم كرامته

واحترامه لنفسه وقد يقتل آماله وتطلعاته . فما هي المجالات التعليمية والتدريبية التي يجب ان نفتح لهؤلاء ليحتفظوا بكرامتهم الشخصية من ناحية ، وليكونوا منتجين فعالين في عمليات التنمية من ناحية اخرى ؟

هنالك بدايات في تنوع التعليم المدرسي الثانوي لاستيعاب امثال هؤلاء . ولكن هنا ايضا لا تستوعب هذه الا الفئة القليلة منهم من ناحية ، ومن ناحية اخرى لا ترتبط المناهج المصممة لهم ارتباطا وثيقا بحاجاتهم في المستقبل .

والان نظرة عامة في المدرسة العربية ككل . لا شك ان المدرسة كانت من اكثر العوامل فعالية في التطور الاجتماعي والاقتصادي الذي حدث في البلاد العربية في هذا القرن . ولكن ليس هذا مجال بحث ذلك . فالذي يعيننا هنا هو نوعية الانسان الذي تخرجه المدرسة العربية ، وهل نجحت المدرسة في تربية تلك الصفات العقلية والفكرية والوجدانية والخلقية التي تعكس نموها سليما متكاملًا للانسان ؟ وهل نجحت في تنمية المهارات الاساسية ليمش هذا الانسان عيشة راضية في هذا العصر ؟ وهل نجحت في تاصيل الانتماء الحضاري والقومي في ابنائنا وبنائنا مع اختلاف خلفياتهم وبيئاتهم ؟ وهل نجحت في تحريرهم بدلا من تدجينهم في البنيات السياسية والاقتصادية القائمة ؟.

هذه الاسئلة وما ارتبط بها من اسئلة اخرى هي اليوم ما يشغل بال المربين . فلا شك ان اكثر البلاد العربية مستاءة من نتائج المدرسة العربية الحالية ، وامام هذه الاسئلة وما شابهها ، بل وامام تحديات التخلف وامام المخاطر التي تتعرض لها الامة العربية ، تقف هذه البلاد الان وقفة ناقدة لواقع التعليم المدرسي ، وتطرح تساؤلات جذرية حول ما ينبغي ان تصير اليه التربية المدرسية . فبعد ان اطمأنت هذه البلاد الى توفير التعليم المدرسي الاكثر صارت نوعية التربية هي القضية الكبرى في هذا التعليم .

ومن عجيب امرنا انه مع كثرة الجامعات وكليات التربية ومعاهد تدريب المعلمين ، فان الدراسات التي تبين طبيعة نتائج التعليم المدرسي ، او الدراسات التي تبين واقع التعليم المدرسي والابعاد الحضارية والاجتماعية التي تجعله كما هو عليه ، والدراسات التي يمكن ان تسعفنا ونسترشد بها في تطوير نوعية التربية ، تكاد تكون معدومة .

هنالك ارادة جديدة لتغيير واقع التعليم المدرسي . ولكن ما هي خلفيات هذا الواقع وابعاده ؟ ولماذا هو كما هو ؟ ثم كيف يمكن تحريكه ؟ واتى اين يجب ان ينتجه ؟ وما هي الانظمة التربوية وما هي الوسائل البشرية والوسائل المادية اللازمة لذلك ؟ هذه هي بعض الاسئلة الكبرى التي يقتضي التغيير توضيحها .

وبهذه المناسبة فان هذا البلد - في دولة الكويت - مركزا للبحوث التربوية من بعض مهماته معالجة هذا النوع من الاسئلة اتوقع ان تكون له آثاره الايجابية في تطوير نوعية التربية المدرسية .

ولا يستطيع ان ادعي انني اعرف اثار التعليم المدرسي في اطفالنا معرفة علمية ، وكذلك لا يستطيع ان ادعي ان ما ينبغي ان تصير اليه التربية المدرسية العربية واضح كل الوضوح عندي . فهذا الموضوع يقتضي تعاون الفلاسفة والمفكرين والعلماء الاجتماعيين والمربين ، ولكن سأحاول طرح بعض الخلفيات التي تؤثر في واقع التعليم تأثيرا مباشرا وذلك في سبيل توضيح الرؤية امام الذين سيفع على عاتقهم تطوير التربية العربية .

ومن ناحية الطفل اطمئنانا بأنه انسان محترم له الحرية في التعبير عن حاجاته وتساؤلاته دون تخوف من عقاب .

ولكن ما هو واقع هذه العلاقات في المدرسة العربية ؟ وكيف تؤثر في تكوين اطفالنا في اتجاهاتهم نحو انفسهم ؟ وفي اتجاهاتهم نحو صاحب السلطة ؟ وفي اتجاهاتهم نحو العمل والقيام بالواجب ؟ وفي اتجاهاتهم نحو العلم والمعرفة ... الى اخره ؟ لا نستطيع ان ندرک انار المدرسة في اطفالنا ما لم ندرک انار هذه العلاقات في نمو اطفالنا وتكوين صفاتهم اللازمة لشخصيتهم .

من اين جاء المعلم باتجاهاته نحو الصغار وكيف اكتسبها او قد نبحت هنا عن العلاقات بين الكبار والصغار والعلاقات بين من هم في موقع السلطة ومن هم في موقع الخضوع لها للجواب على هذه الاسئلة ولكن لا نستطيع تطوير التربية المدرسية وخاصة في تدريب المعلمين ما لم نتضح لنا هذه الاجوبة .

هذه بعض الخلفيات التي لا نستطيع ان نهملها اذا اردنا للمدرسة ولغيرها من المؤسسات التربوية ان تصير اداة فعالة في تنمية وتربية العصر البشري القادر على مواجهة تحديات هذا العصر ومخاطره .

ومع ذلك فعلياً ان نسأل : هل تكفي دراسات الباحثين والعلماء اللازمة لتطوير التربية العربية ؟ وهل يكفي تفكير الفلاسفة والمفكرين لتحديد غاياتها ؟ وهل يكفي ابداع المربين وخيالهم لترجمة ذلك الى انظمة تعليمية تربوية قادرة على تحقيق تلك الغايات والاهداف ؟

الجواب في واقعا السياسي والإداري هو ان هذه الجهود - وان كانت اساسية لا تكفي وحدها لتطوير واقع التربية . بل يعتمد التطوير المطلوب الى درجة كبيرة على تفهم وارادة من يملكون القدرة على اتخاذ القرارات الكبرى للتغيير ويملكون القدرة على توفير الامكانات اللازمة لهذا التغيير ان كانت مالية او تنظيمية (بانشاء المؤسسات اللازمة للبحث والتطوير) . فما لم يمتد الاحساس بضرورة التطوير ووضوح الرؤية في ما ينبغي ان تصير اليه التربية العربية الى الذين يملكون هذه القدرات وتتولد عندهم ارادة الصادقة بضرورة التطوير . فان هم الباحثين والعلماء والمربين تبقى معطلة ولا تثمر سوى القهر والاحساس بالمعجز .

ولكن قضية التربية العربية لا تقف عند توفر ارادة القائدين وجهود العارفين ، بل عليها في النهاية ان تسأل عن مصير نجاحها وكيف يتأثر هؤلاء عند استيعابهم في البنيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية القائمة في المجتمع . فالتربية لا تنظر الى الانسان كمجرد وظيفة ذكية وفعالة في هذه البنيات والا صارت تربية تدجين للناس . ولكنها اولاً وقبل كل شيء تنظر اليه ككائن تكمن فيه طاقات هائلة وظيفتها هي تحرير هذه الطاقات وتنميتها . ما لم تتغير طبيعة هذه البنيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية لتتسجم مع وظائف التربية في تحرير الانسان ، فان هذه البنيات ستفرض على نتاج التربية سلوكاً يلائم طبيعتها ويضطر الناس للتخلق بهذا السلوك طلباً للعيش والامان . وعندئذ تذهب قدرات وصفات اساسية في عمليات التنمية الحقيقية هدراً .

وباختصار ان التربية العربية في محنة حقيقية وقضية تطويرها قضية معقدة وشاقة تحتاج الى دراسات كثيرة وعميقة وتحتاج الى تفسيرات جذرية في جوانب عملينا المتوارثة وتحتاج الى خيال وابداع وجهود متواصلة واهم من ذلك تحتاج الى ارادة صادقة من قبل القائدين والى تغييرات جذرية في بنائنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

فاين نبدأ وكيف نسير ؟ نرجو لهذا المؤتمر ان ينجح في اتخاذ التوصيات العملية اللازمة .

د . علي عيسى عثمان

رئيس المؤسسة العربية لتطوير التربية

ولا اتناول في هذه المحاولة ما هو من فنيات توضيح هذه الرؤية : اي ما توصلت اليه المكتشفات السيكولوجية عن طبيعة الطفل ومراحل نموه وطبيعة تعلمه ، او ما توصلت اليه التربية حول مضمون التعليم لمراحل نمو الطفل وحول خبر الاساليب والممارسات والنشاطات اللازمة لتوفير الجو التربوي المطلوب ولكن ساقصر على ذكر بعض الخلفيات الحضارية والاجتماعية التي اعتقد ان لها علاقة مباشرة بجعل واقع التعليم كما هو عليه .

اولاً : النزعة نحو الكمال : في عقليتنا نزعة قوية نحو وضع نظام كامل ونهائي لما نريد تطويره . فاذا وضعنا سياسة تربوية او منهج او كتباً مدرسية او برامج لتدريب المعلمين وغيرهم من القوى التعليمية نتوقع من انفسنا ان نضع كلا من هذه الاجزاء وضعا محكما وكاملاً . فلا نترك لتطور المعرفة او للتجربة ابواباً تدخل منها وتتسرب لتغيير ما وضعناه ونسمع بالمعرفة الجديدة ونمر بالتجارب الكثيرة ولكن استمرارية النظام الذي وضعناه تبقى اقوى من ان تفتح لهذه المعرفة وتلك التجارب ، الى ان تقوى الضغوط على تغيير النظام فننتقل الى وضع نظام جديد مقلق اخر وهكذا .

ثانياً : الهرمية في التنفيذ : التجارب المباشرة في التطبيق هي التي يمر بها المعلم وهي التي يمر بها التلاميذ . وهي التي لا يحس بها المسؤولون عن تطوير التربية احساساً مباشراً . وفنوات التغيير هي القنوات الادارية من الاعلى الى الاسفل : اي من الذين لا يباشرون التنفيذ الى الذين يباشرونه ولان العلم يرى تطوير دوره في العمليات التعليمية التربوية من خلال تحسنه لما يرضى المسؤولون فان وعيه لتجاربه الشخصية ولاهيتها في تطوير مضمون ما يعلم او تطوير اساليبه في تعليم ذلك المضمون يكاد يكون معدوماً عند اكثر المعلمين ولان تحسن المعلم في ارضاء رؤسائه اهم في مصيره نتيجة واقعا الإداري من تحسنه لمقتضيات وظيفته التربوية ، فالجود السائد في مدارسنا هو التزلف نحو هؤلاء الرؤساء والتقرب اليهم بعلاقات شخصية .

ثالثاً : النمو الذاتي : التجربة الشخصية لا نعي اهميتها في النمو المهني ، وكذلك لا نعي اهمية القراءة والاطلاع في هذا النمو . واسباب ذلك كثيرة منها ما ذكرناه عن الادارة الهرمية ومنها ان القراءة في حد ذاتها اقترنت بالالات والمخاوف والمعاينة التي اقترنت بمراحل نمونا كتلاميذ ومواجهتنا للامتحانات الحاسمة في حياتنا كانت القراءة مرتبطة في تلك المراحل بحفظ الذي يفرض علينا للنجاح في الامتحانات . وصار الخروج من التعليم المنظم هو التحرر من هذا الفرض . فالرؤساء لا يقرأون ، وبالتالي لماذا يقرأ المعلمون ؟ النتيجة هي ان مضمون التعليم يتقلص عند المعلمين الى تعلم المطلوب بغض النظر عن اهميته في حياة الاطفال او حاجاتهم في النمو المتكامل ، وارتباطه بواقع مجتمعهم .

رابعاً : مفهوم العلم وموضوعه : ويقترب بهذه الاتجاهات والممارسات مفهوم العلم لتوارثه من قرون الانحطاط الحضاري . سادت اهمية الفقه على المعارف والعلوم الاخرى في هذه القرون لاهمية الفقه في سلوك المسؤولين ولاهيمته في حياة الناس اليومية ومعاملاتهم . وبذلك صار الفقيه ذا مكانة خطيرة في المجتمع .

اما موضوع الفقه فطبيعته يجب ان يكون مقننا ، وعلى طالبه ان يحفظه لانه دائماً عرضة للسؤال ، واجوبة الفقيه يجب ان تكون صحيحة ومحددة .

والذي يسود في مدارسنا اليوم يعود في جذوره الى هذا التراث . والعلم موجود في الكتب المتفق عليها والمقررة ، ودور المعلم في التعليم هو شرحها وتلقينها ، ودور المتعلم هو حفظ ما فيها وتذكره عند الطلب . وجاءت اهمية الامتحانات في انظمتنا واساليب كتابة الكتب المدرسية لتؤكد هذا التراث وتعززه .

خامساً : العلاقات الانسانية في المدرسة : التربية الحديثة واساليبها تعتمد على وجود علاقات ديمقراطية بين المعلم والتلميذ ، علاقات تعكس من ناحية المعلم احتراماً حقيقياً لشخص الطفل واحتراماً حقيقياً لحاجاته كإنسان في مراحل نموه الاولى والاساسية